

جامعة محمد بوضياف المسيلة - قسم التاريخ -
إقليم الحضنة دراسة أنثروبولوجية واجتماعية عبر التاريخ
الملتقى الدولي الإلكتروني الأول الموسوم بـ:
"مجتمع المغرب الأوسط بين البداوة والحضارة في العصر الوسيط"
بحث في الأصول والإنتاج الحضاري المادي واللامادي.
7-8 جويلية 2021
عنوان المداخلة:

دور المؤسسة التعليمية في إرساء الحياة الحضرية بالدولة الرستمية

د / زاوي بوبكر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

البريد الإلكتروني: boubakar.zaoui@univ-emir.dz

الملخص:

يساهم التعليم في مدى تحضر المجتمعات ويرتبط بالحضرية كأسلوب حياة، وبالتالي فهو يشارك في خلق الديناميكية التي تتميز بها المناطق الحضرية فضلا عن المناطق البدوية التي تتميز بمستوى منخفض من التعليم.

وعلى غرار الدول التي اهتمت بالتعليم كآلية من آليات التحضر، اعتمدت الدولة الرستمية بعد تأسيسها على يد "عبد الرحمن بن رستم" سنة 777 ميلادي الموافق لسنة 160 هجري على عنصر التعليم في تطويرها وتقدمها وازدهارها، وفي هذه المداخلة سنحاول إبراز دور التعليم في تحقيق الرفاه وخلق المحتوى الحضري داخل الدولة الرستمية من خلال تناول أهم الجوانب المتعلقة بتأثير مختلف العلوم النقلية والعقلية على الحياة الاجتماعية.

Abstract:

Education contributes to the urbanization of societies and is linked to urbanization as a way of life, and thus it participates in creating the dynamism that characterizes urban areas as well as nomadic areas that are characterized by a low level of education.

Similar to the countries that focused on education as a mechanism of urbanization, the Rustumiya state, after its establishment by "Abd al-Rahman bin Rostum" in 776 AD corresponding to the year 296 AH, adopted the element of education in its development, progress and

prosperity, and in this intervention we will try to highlight the role of education in achieving well-being and creating Urban content within the Rustumiya state by addressing the most important aspects related to the influence of various transport and mental sciences on social life.

الكلمات المفتاحية: الدولة الرستمية، التعليم، المؤسسة التعليمية، الحياة الحضرية.

Key words: Rustamid state, education, educational institution, urban life

مقدمة:

المدينة هي وحدة حضرية ممتدة ذات كثافة سكانية كبيرة مقارنة بالقرية، توجد بهل معظم النشاطات والمرافق البشرية كالإسكان والتجارة والصناعة والتعليم، فقد ظهرت حسب المؤرخين ما بين سنوات 3500 و 1500 ق.م بالسهول الخصبة لبلاد الشام ووادي الأردن، وبمنخفضات نهر الصين "يونغ تسي" أو "الأمومة"، وانطلاقاً من الربع الأول للقرن العشرين ظهر اتجاهها جديداً على يد رواد مدرسة شيكاغو بزعامة كل من بارك (R. Park) وبيرجس (Burgess)، حيث اعتبر أن المدينة هي عبارة عن نظام إيكولوجي في تغير مستمر¹، وأن كل ما يتعلق بالجانب الإنساني والبشري داخل هذه المدن يطلق عليه الإيكولوجيا البشرية والتي تتمحور دراستها حول القيم والمعايير الثقافية التي تحكم سلوك الأفراد.

حيث يشكل التعليم كنظام من الأنظمة الهامة لتحقيق الغاية من الحياة الحضرية مثله مثل النظام الصحي والنظام الصناعي والنظام الخدماتي حلقة من حلقات التنمية الشاملة والمستديمة ويأتي، إذ يرتبط الطلب على الإسكان الحضري بالمستوى الاقتصادي والاجتماعي والتعليمي.

¹ محمد معزوز، مشكلات الإسكان الحضري (المناطق الحضرية المتخلفة لمدينة سكيكدة نموذجاً)، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع الحضري، قسم علم الاجتماع والديمقراطية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، 2006/2005، صص 172/82.

ويعتبر التعليم نواة توسع وازدهار المدن والمناطق الحضرية، وذلك لإسهامه في التنمية الصناعية وفي تخفيف فجوات التباين في مستويات التنمية بين مختلف الأقاليم، فالعملية التعليمية شرط أساسي للفرد، يستطيع من خلالها معرفة العالم الخارجي، والتفاعل معه بوعي تام، كما يسهم المستوى التعليمي للأفراد في تطوير المجال الحضري للمدينة ...

وحسب ابن خلدون فإنّ المدن والأمصار في إفريقية والمغرب قليلة والسبب في ذلك أنّ هذه الأقطار كانت للبربر منذ آلاف السنين قبل الإسلام، وكان عمرانها كلها بدويا وأن الحضارة لم تستمر حتى ترسخ في هذه الأقطار من قبل الدول التي ملكتهم من الإفرنجية والعرب، وذلك لأن الصنائع من توابع الحضارة وهي بعيدة عن البربر والتي تعدّ من مؤشرات المدن الحضرية، فبالصناعة والتجارة والتعليم والحرف تُبنى المناطق الحضرية، كذلك لأن البربر لم يتشوفوا إلى المباني فضلا عن المدن كونهم أهل عصبية وأنساب، فلذلك كان عمران إفريقية والمغرب كله أو أكثره بدويا، أهل خيام وظواعن وقياطن وكنن في الجبال¹.

ومع قلة المدن والأمصار في إفريقية والمغرب إلا أنه يجب أن نشير إلى أن الرستميّين تمكّنوا من إرساء حياة حضرية بتاهرت رغم أنها كانت لا تساعد على العيش بالنمط الحضري وأنها كانت بلادا وعرة لا تصلح إلا للرعى، وذلك بفضل إتقانهم لمختلف العلوم واعتمادهم على الرحلات التجارية.

وقد ربط ابن خلدون بين العمران والسكان، فكثرة السكان تعني ازدياد العمران وازدياد الإنتاج، وبالتالي الانتقال من الإنتاج الأولي الذي يتمثل في الزراعة إلى الإنتاج الثانوي الذي يتمثل في الصناعة، وتعني كذلك انتقال الاهتمام من مجرد إنتاج القوت إلى التفرغ للعلم والتعليم والفنون والصناعات وهي جميعا تصنع الرفاهية والترّف².

¹ عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، القاهرة جمهورية مصر العربية، 2010، ص 299.

² سلاطينية رضا، الأحياء المتخلفة والنمو العمراني (دراسة ميدانية لحي الديار الزرقاء مدينة سوق اهراس)، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع الحضري، قسم علم الاجتماع والديمغرافيا، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، 2006/2005، ص 27.

لقد ساهمت عوامل عدة في التوسع الحضري لمدينة تاهرت، وتماشيا مع محاور الملتقى سنحاول تسليط الضوء على الحركة التعليمية ودورها في تمدن تاهرت وتوسعها الحضري

أولا: تاهرت: الحاضرة العاصمة ومشروع الإباضية السياسي والفكري:

يبدو جليا أن قادة المشروع الإباضي بالمغرب الإسلامي أدركوا أن السبيل الوحيد لبعث والتمكين للمذهب الإباضي لن يكون إلا بتأسيس مدينة تكون حصنا لهم أمام الهجمات الخارجية خاصة من الخلافة العباسية ووكلائها الأغلبية الذين ما فتئوا يحاولون وأد أي مشروع انفصالي استقلالي في هذه الجهة البعيدة عن مركز الخلافة بالشرق من جهة، ومن جهة أخرى تكون ملجأ للجماعات الإباضية المنتشرة والمشتتة في أصقاع العالم الإسلامي، فضلا عن كونها ستكون ولا شك فضاء لنشر المذهب واستقطاب أتباع جدد.

تشكل سنة 160هـ / 777م سنة التأسيس الفعلي لمدينة تاهرت على يد عبد الرحمن بن رستم¹ بعدما استطاع وبمشقة عظيمة من النجاة من القتل بعدما كان ضمن الثائرين مع أبي الخطاب عبد الأعلى على جيوش الخلافة العباسية بطرابلس والقيروان في جوالي سنة 144هـ²، وجدير بالذكر أن الروايات التاريخية أحاطت تأسيس مدينة تاهرت بنوع من الهالة وهي تتشابه في ذلك مع ما ذكر عن تأسيس مدينة القيروان، ولعل لذلك السرد ما يبرره في المخيال الجمعي للمجتمع الإباضي، فقد نقل أن

¹ - مع التنبيه إلى وجود روايات أخرى ترجع تأسيس المدينة إلى سنة 144هـ/، يراجع حول هذا كل من: البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، تحرير وتقديم وتعليق، حماه الله ولد السالك، دار الكتب العلمية، لبنان، 2013، ص 152، الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، حققه، إبراهيم طلاي، الزهراء للإعلام العربي، ج01، ص ص 41،40، فاطمة مطهري، المظاهر الحضارية في القيروان وتيهرت إبان القرنين الثاني والثالث الهجريين دراسة مقارنة، دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2015/2014، ص 206.

² - محمد بن تاويتالطنجي، دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، إسبانيا، 1957، ص 108

الموضع الذي بنيت عليه كان أرضا لا عمران ولا عمارة فيه، وحسبما جاء عن الدرجيني فحين وقعوا على اختيار المكان: "أمروا مناديا ينادي بسباعها ووحوشها وهيامها، أن أخرجوا فإننا أردنا عمارة هذه الأرض، فأجلوها ثلاث أيام، وبلغنا أنهم رأوا وحوشها تحمل أولادها خارجة بها منها"¹، ويبين البكري أن الموقع المختار "كان لقوم مستضعفين من مراسم وصنهاجة، فأرادهم عبد الرحمان على البيع، فأبوا فوافقهم على أن يؤدوا إليهم الخراج من الأسواق ويبيحوا لهم بنيان المساكن، فاختطوا وبنوا، وسمي الموضع معسكر عبد الرحمان بن رستم .."².

ولئن كان مصطلح " المعسكر " يوجي - نظريا - بمحدودية حضور هذه المدينة ضمن شبكة مدن المغرب الإسلامي، فإن النصوص والوقائع التاريخية تؤكد أن تاهرت ستصبح من أهم مدن الغرب الإسلامي، كيف لا وهي تعتبر ثاني مدينة إسلامية بعد القيروان، وقد ساعدت جملة من العوامل في بروزها كمدينة ذات حضور سياسي واقتصادي وإشعاع حضاري، يمكن إجمالها فيما يلي:

* العصبية القبلية: لم يكن للإباضية كمشروع مذهبي وفكري، ولا تاهرت كمدينة مستحدثة، أن يبرز لولا التقاف بعض القبائل البربرية حولهما، ومن أبرزها قبيلتي نفوسة ولماية وهوارة وزواغة ومطماطة وزناتة و مكناسة كما يشير لذلك البكري³، وتعد قبيلة لماية من أبرز قبائل المغرب الأوسط اعتناقا للمذهب الإباضي⁴، وبالتالي توفر عنصر النصرة.

* الموقع الطبيعي الهام: لم تكن تاهرت استثناء عن باقي المدن الإسلامية آنذاك في خصوصية موقعها، فقد حرصت الجماعة الإباضية على اختيار موقع يضمن لها الاستمرارية، وبالتالي توفر عناصر البقاء وخاصة ما تعلق بعنصر الماء، وهو ما تبينه النصوص الجغرافية التي بينت أن المدينة

¹ - الدرجيني، المصدر السابق، ص 140، فاطمة مطهري، المرجع السابق، ص 207، وأنظر ما حكي عن تأسيس مدينة القيروان مثلا عند ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق، بشار عواد معروف، محمود عواد معروف، الطبعة 01، دار الغرب الإسلامي تونس، 2013، ج 01، ص ص 45، 44.

² - البكري، المصدر السابق، ص 154.

³ - البكري، المرجع نفسه، ص 153.

⁴ - فاطمة مطهري، المرجع السابق، ص 211.

بنيت بالقرب من نهر مينة، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتش"¹، على الرغم من وقوعها في ملتقى التل وبداية الصحراء، ضمن الهضاب العليا التي تمتاز ببرودة الطقس، الأمر الذي جعل العديد من الشعراء يتندرون ويلقون الأشعار حول برودتها، كما هو الحال مع بكر بن حماد الذي يقول :

ما أخشن البرد وريعانه وأطرف الشمس بتيهت

تبدو من الغيم إذا ما بدت كأنها تنشر من تحت

فنحن في بحر بلا لجة تجري بنا الريح على السم

نفرح بالشمس إذا ما بدت كفرحة الذمي بالسبت²

على أن ذلك الطقس البارد الذي لم يرق لبكر بن حماد كما في شعره، كان يوفر الأمطار التي ستساعد في نمو النشاط الفلاحي والزراعي وبالتالي النهضة الاقتصادية للمدينة.

* الأهمية الاقتصادية: وقوع تاهرت على طريق القوافل التجارية المارة من وإلى المشرق والسودان لعب دورا في اختيارها، فهي تتوسط قبائل الناحية، مما جعل منها سوقا تقصدها القبائل وتصلها القوافل التجارية التي تربط الواحات الصحراوية بموانئ الساحل³.

واضح جدا أن تاهرت وبالنظر إلى العوامل السابق ذكرها ستشهد تطورا عمرانيا وحضريا ملحوظا يُستشف من عدد الأبواب التي أنشئت في مداخلها، وهي: باب الصفاء، باب المنازل، باب الأندلس، باب المطاحن وغيرها⁴.

على أن ما سبق لا يجب أن يمنعنا من التأكيد على أن تاهرت لم تكن لتتال تلك الأهمية لولا اتخاذها دارا للسلطان، وهو الأمر الذي نعتقد أنه أساسي في التوسع الحضري والإشعاع الثقافي لها ولغيرها من المدن الإسلامي التي اتخذت عاصمة سياسية للدولة، لما يتأتى لها آنذاك من عوامل النهضة الناتجة

¹ - البكري، المصدر السابق، ص 152، مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ص 178، ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977، ج02 ص 08.

² - ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج02، ص 08، البكري، المصدر السابق، ص 153

³ - فاطمة مطهري، المرجع السابق، ص 211.

⁴ - البكري، المصدر السابق، ص 152، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج02، ص 08.

عن تدبير السلطان وحرصه على إطالة أمد دولته، فضلا عن سعيه لمنافسة باقي المدن الأخرى، وهذه الأخيرة تتأكد بالضرورة في تاهرت على اعتبار خصوصياتها المذهبية والفكرية، حيث - وكما سيأتي بيانه - سيسعى حكام الدولة الرستمية بمضاهاة باقي الحواضر كالقيروان أو قرطبة السنينتين المالكتين.

لقد بذل الأئمة الرستميون جهودهم في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية في ربوع دولتهم، من تشييد للمساجد والدور العلمية وجلب الكتب من المشرق¹، و يرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى كون حكام هذه الدولة كانوا إما علماء وطلبة علم، أو داعمين ومحبين للعلم والعلماء، كما أن من شروط تولي الإمامة عند الإباضية أن يكون الإمام المبايع عالما محيطا²، فعبد الرحمان بن رستم يُعد من حملة العلم الخمسة الذين أخذوا العلم بالمشرق عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة الفقيه البصري المشهور³، وقد نقل ابن الصغير عن غير واحد من الإباضية قولهم عن سيرة ابن رستم أنه: " لما ولي عبد الرحمن بن رستم ما وُلي من أمور الناس، شمر مئزره وأحسن سيرته وجلس في مسجده للأرملة والفقير"⁴ وقد نقل عن أحد معاصريه أنه قال: " لا أعلم من يخرج مسائل دماء أهل القبلة في زماننا هذا إلا عبد الرحمن بن رستم بالمغرب"⁵، لقد تبنى ابن رستم مشروعا حضاريا، زواج فيه بين البعد الديني والثقافي، داخل المجتمع التاهرتي المتعطش لمعرفة أصول الدين⁶، ونفس الأمر مع ابنه عبد الوهاب الذي يعد من طلبه العلم المجتهدين، ترك مؤلفا⁷ نوازل مشهورا " مسائل نفوسة"⁸، وقد كان عبد الوهاب هذا يرسل الأموال إلى بلاد بلاد المشرق لاقتناء الكتب، بهدف الرفع من مستوى العلم والثقافة بدولته الناشئة⁹.

¹ - معروف بلحاج، الانتاج الفكري في عهد الدولة الرستمية، مجلة الفضاء المغاربي، العدد 02، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي، جامعة تلمسان، أبريل 2004.

² - بكير براهيم بحاز، الدولة الرستمية (160-296هـ/777-909م)، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، منشورات ألفا، الجزائر، 2010، ص 318.

³ - والخمسة هم: أبو الخطاب المعافري، عبد الرحمان بن رستم، عاصم السدراتي، اسماعيل بن درار الغدامسي، وأبو داوود القبلي، يراجع في ذلك، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار المعرفة الدولية، الجزائر، 2013، ج 02، ص ص، 271، 272.

⁴ - ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين تحقيق، محمد ناصر، بكير براهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ص 28.

⁵ - براهيم بحاز، المرجع السابق، ص 319.

⁶ - فاطمة بلهوارى، إسهام حكام بني رستم في أسلمة وتعريب مجتمع المغرب الأوسط، مجلة عصور، العدد 22-23، مخبر البحث التاريخي مصادر وتراجم، جامعة وهران، الجزائر، 2014، ص 142.

⁸ - ينظر: ابن الصغير، المصدر السابق، ص 45.

⁹ - الشماخي، السير، المطبعة البارونية، ج 01، ص 162، فاطمة مطهري، المرجع السابق، ص 502.

ويشير الدارسون إلى أن عهد الإمام الثالث أفلح بن عبد الوهاب يُعد عهد الازدهار الفكري والحضاري للدولة الرستمية، متوازيا في ذلك مع الرخاء الاقتصادي الذي شهدته الدولة آنذاك¹ ويُعد من الحكام العلماء العلماء فقد كانت تعقد بين يديه ثلاث حلقات علم في الفقه والكلام واللغة، وله أجوبة في بعض مسائل الفقه² وله نظم مليح في الحث على العلم وتدارسه يقول فيه:

العلم أبقى لأهل العلم آثارا يريك أشخاصهم روحا وأبكارا

حي وإن مات ذو علم وذو ورع ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا³

ونفس السيرة كانت على عهد خلفه محمد بن أفلح الذي يكفينا ما نقله الدرجيني لنتلمس ملامح الحركة الفكرية على عهده، حيث يقول: ".فكانت نفوسة فيما قيل لا يعدلون أيامه وسيرته إلا بأيام جده عبد الرحمن وسيرته، وذلك أنهم اتخذوا مجلسه حينئذ كالمسجد، فطائفة يصلون وطائفة يقرؤون الكتاب، وطائفة يتذاكرون في فنون العلم"⁴.

إن إيراد هذه السير العطرة لأئمة الدولة الرستمية، والمفعمة بالحراك العلمي والدعم القوي للأنشطة العلمية والذي تكلم بالمنشآت العمرانية التعليمية-التالي ذكرها- يأتي في سياق إبراز دور السلطة السياسية في النهضة العلمية للدولة الرستمية، وبالتالي ستكون تاهرت فضاء جامعا للنخب الفكرية والثقافية من مختلف الأقطار، ما سيساعد في توسع الشبكة الحضرية والاجتماعية لمدينة تاهرت.

ثانيا: الحركة التعليمية بحاضرة تاهرت: المؤسسات والبرامج

قد سبق الحديث إلى كون الفقه الإباضي يشترط العلم في الإمامة، وبيننا أن حكام الدولة الرستمية كانوا على قدر كبير من الثقافة، وبطبيعة الحال سينعكس ذلك ولا شك على المناخ الثقافي والجو العلمي بالدولة ككل، حيث شهدت الدولة الرستمية حركة علمية وتعليمية مشهودة، سنحاول أن نتتبعها في شطرين رئيسيين: المؤسسات التعليمية والبرامج والمقررات:

¹ - فاطمة مطهري، المرجع السابق، ص 502.

² - معروف بلحاج، المرجع السابق، ص 242، فاطمة مطهري، المرجع السابق، ص 502.

³ - بكير بحاز، المرجع السابق، ص 325.

⁴ - الدرجيني، المصدر السابق، ج01، ص 84،83، فاطمة مطهري، المرجع السابق، ص 502

يجب التأكيد في المستقل أن تاهرت عاصمة الدولة كانت مركز الحركة التعليمية، إذ استقطبت وفودا هائلة من المشايخ والطلبة خاصة من جبل نفوسة¹، وعليه سيقترن حديثنا على تاهرت ومؤسساتها التعليمية كنموذج عن الحركة التعليمية بالدولة الرستمية عموما.

أ/ المسجد:

يُشير البكري في معرض حديثه عن تاهرت إلى أن المسجد كان أول ما بدأت بينائه جماعات الإباضية التي اتخذت ذلك الموضع لتأسيس مدينة تكون عزا وملجأ لهم، ويُشير إلى كونه بُني بخشب الأحراش التي تُحيط بموضع تاهرت، وهو من أربع بلاطات²، لقد كان المسجد مكانا لتدارس مختلف العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه، وغير ذلك، وكانت حلقات العلم منتشرة ومتنوعة بتنوع المذاهب الموجودة بتاهرت³ لقد عُدَّ المسجد الجامع أهم مركز للدراسات الإباضية، وفيه كان يعقد الأئمة حلقاتهم الدراسية ومواعظهم⁴ وبهذا المفهوم فقد كان المسجد بمثابة جامعة لعدم اقتضاره على الأمور التعبدية⁵.

ولم يكن بتاهرت مسجد واحد، وإنما تعددت المساجد التي كانت تعبر عن حقيقة التنوع الفكري والاجتماعي الذي تميزت به تاهرت، وهو ما يشير إليه ابن الصغير بقوله: "وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين..."⁶ لقد جعلت هذه المساجد مدينة تاهرت بمثابة مركز ثابت لنشر الإسلام والحضارة العربية بين البربر، حيث لعبت دورا تعليميا مهما⁷

وبالمساجد كان علماء تاهرت يعقدون حلقاتهم التعليمية ضمن نمطين:

¹ - سامية مقري، التعليم عند الإباضية في بلاد المغرب من سقوط الدولة الرستمية إلى تأسيس نظام العزابة (296-409هـ/ 909

-1018م)، ماجيستر في التاريخ الوسيط، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006/2005، ص 51

² - البكري، المصدر السابق، ص 152، بكير براهم بجاز، المرجع السابق، ص 330، ويخمن الدكتور بجاز إلى كون المقصود بأربع بلاطات هي أقسام المسجد.

³ - بجاز، المرجع السابق، ص 338.

⁴ - بجاز، المرجع نفسه، ص 338.

⁵ - بلهوارى فاطمة، المرجع السابق، ص 143. مختار حساني، تاريخ الجزائر الوسيط، دار الهدى للنشر والتوزيع، الجزائر،

ج04، ص 12

⁶ - ابن الصغير المالكي، المصدر السابق، ص 32.

⁷ - فاطمة بلهوارى، المرجع السابق، ص 144

* حلقات عامة: تلقى على شكل مواعظ ودروس وهي مفتوحة أمام الجميع. وكان هدفها التثقيف والتوجيه التربوي للمجتمع الإباضي.

* حلقات خاصة: وهي موجهة لطلبة العلم الذين يقضون معظم أوقاتهم في العلم والتحصيل والحفظ، وقد كانت بمثابة " التعليم النظامي"¹.

ب/ المكتبات:

اشتهر الأئمة الرستميون باقتنائهم للكتب من المشرق، كما اشتهروا بالتأليف في مختلف فنون العلم، تُشير المصادر الإباضية إلى أن الإمام عبد الوهاب بعث بألف دينار إلى إخوانه بالبصرة ليشتروا بها كتباً².

لقد كان الفضل في تكون الرصيد الكتبي - إن صح هذا التعبير - لإباضية المشرق، الذين ما فتئوا يبعثون بأهم المصادر والكتب الدينية وغيرها لإخوانهم بتاهرت، ومما أشارت إليه المصادر أربعين حملاً من الكتب التي أُتي بها من المشرق على عهد عبد الوهاب³، وهي التي ستشكل نواة لمكتبة تاهرت التي التي ستعرف لاحقاً بمكتبة المعصومة والتي ستحتوي آلافاً من المجلدات⁴، وأصبحت عاملاً هاماً في تعريب المنطقة⁵، وقد كان حرق هذه المكتبة من طرف العبيديين لحظة اجتياحهم لتاهرت خسارة كبيرة للثقافة الرستمية والمذهب الإباضي، ولحضارة الجزائر في العصر الوسيط إجمالاً⁶.

لقد كانت المكتبات ملجأ طلاب العلم خاصة أنها حوت مختلف صنوف المعرفة ككتب الصنائع والحساب وسياسة الملك⁷، هذا فضلاً عن كتب العلوم النقلية خاصة ما تعلق بالفقه الإباضي.

وبالتالي فهي فضاءات لتدارس عديد العلوم والمعارف، خاصة ما تعلق بالعلوم الدينية التي كانت ميزة العصر، فضلاً عن كتب التاريخ والسياسة، ويمكن أن نذكر على سبيل المثال عدداً من الكتب التي تم

¹ - صلاح الدين شعباني، التربية والتعليم عند الإباضية بالمغرب الإسلامي، بين القرنين الثالث والخامس الهجريين (11/0م)، ماجيستر في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، 2003، 2004، ص ص 88،89.

² - بحاز براهيم، المرجع السابق، ص 345.

³ - أبو زكرياء، السير، ص 65، بكير بحاز، المرجع السابق، ص 346.

⁴ - بكير بحاز، المرجع السابق، ص ص 346،347. صلاح الدين شعباني، المرجع السابق، ص 81.

⁵ - فاطمة بلهوارى، المرجع السابق، ص 148.

⁶ - ينظر حول هذا، أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج01، ص 300.

⁷ - لقبال موسى، من قضايا التاريخ الرستمي الكبرى، مكتبة المعصومة بتاهرت، هل أحرقت؟ أو نقلت عيونها إلى سدراتة في جوار جوار بني ورجلان؟ مجلة الأصالة، العدد 41، 1977، ص ص 51،59، بكير بحاز، المرجع السابق، ص 348.

تداولها مثل : تفسير عبد الرحمن بن رستم، وتفسير منسوب لهود بن محكم الهواري، والذي عُدّ معتمد الإباضية وعليه المعول، فضلا عن كتب الفقه والنوازل، وخير مثال على ذلك " مسائل نفوسة " الذي حوى ثلاثمائة سؤال¹ فضلا عن جوابات أفلح بن عبد الوهاب الذي لازال مخطوطا بخزائن غرداية²، ولا يساورنا الشك في وجود مؤلفات فقهية أخرى رغم غياب نصوص تاريخية توثق ذلك .

وإجمالاً يمكن تلخيص مظاهر النشاط الفكري بتاهرت زمن الرستميين فيما يلي:

* كثرة العلماء بتاهرت في مختلف العلوم

* تعدد المذاهب وحلقات المناظرة والجدل، ونجم عن ذلك نشاط واسع في حركة التأليف، فكثرت تصنيف الكتب للرد على المخالفين.

* حرص الأئمة الرستميين على صيانة تلك الكتب فبنوا مكتبة المعصومة.

* ارتباط الحركة الفكرية في تاهرت ارتباطاً قويا بمراكز الإباضية بالمشرق خاصة البصرة، مع علاقات قوية أيضاً بكل من القيروان وفاس وقرطبة³.

ثالثاً: التطور الحضري لمدينة تاهرت على ضوء الحركة التعليمية:

ساهم النشاط التعليمي وروح التسامح الفكري بتاهرت، أو كما سماها أحد الباحثين: " دولة الحرية الفكرية في حدود الدين الإسلامي"⁴ في توسعها الحضري والعمراني وتنوعها الاجتماعي، يستشف ذلك من عدد من النصوص التي تضمنتها المصادر والمراجع المتوفرة بين أيدينا.

إن موقع تاهرت الوسطي في المغرب الإسلامي جعلها ملتقى تجارياً وعلمياً ومذهبياً، فقد توافد عليها عدد كبير من الناس إما لغرض الإقامة الدائمة أو ارتحالاً لطلب العلم⁵، ولا شك أن التسامح المذهبي الذي عرف عنها ساهم في اتساعها العمراني الحضري، فقد عُدّت الدولة الرستمية، "دولة الحرية حرية التفكير

¹ - معروف بلحاج، المرجع السابق، ص 244.

² - معروف بلحاج، المرجع نفسه، ص 244.

³ - عبد الحميد حسين حمودة، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي مكتبة الثقافة الإسلامية، مصر، ص 344

⁴ - عبد الواحد ذنون طه، الإسلام في المغرب والأندلس كيف انتشر ولماذا؟، دار المدار الإسلامي، ط1، ليبيا، 2009، ص 60.

⁵ - فاطمة مطهري، المرجع السابق، ص 505.

والعقيدة وحرية الكلام في نطاق الدين الحنيف، وكانت العامة والخاصة تعبر عن رأيها وعقيدتها في حرية تامة لا كبت ولا إرغام¹

كما كان نشاط حركة التعريب من العوامل المساهمة في توسعها الحضري وتنوعها الاجتماعي، ونجاح التعريب يعني بالضرورة استقرار القبائل العربية وبالتالي انصهارها مع العنصر المحلي البربري،² يذهب دليلاً على هذا قول ابن الصغير في معرض حديثه عن تاهرت: "ليس أحد ينزل بينهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم، لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله، حتى لا ترى داراً إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي"³.

لقد كثر سكان تاهرت واختلف فيها عناصرهم وأجناسهم، فكان فيها من لماية وزناتة وسدراتة وهوارة ولواتة وزواغة، ونفوسة الجبل، كما سكنها قوم من القيروان والكوفة ومن فاس وغيرها، واجتمعت فيها مختلف المذاهب والفرق اليهودية والمسيحية وغيرها⁴.

ونتج عن توافد المجموعات القبلية والعرقية لتاهرت ظهور أحياء جديدة ساهمت في التوسع الحضري لها تمثلت في:

- حي الأجناد المهاجرين: اتخذ هذا الحي شكله البسيط ليصبح في القرن الثالث هجري سرّة المدينة نفسها.

- العدوّة: عبر نهر مينة التي بنتها نفوسة

- منطقة القصور والضياح وأكثرها في الضواحي حيث الجنان والبساتين⁵

لقد خلص الدارسون إلى أن تاهرت مرت بثلاث مراحل في توسعها الحضري:

¹ - محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكر العربي، ص 74. وأنظر، كمال بركات، خولة عامرة، جدل التمايز المذهبي والتقارب الاجتماعي والثقافي في الغرب الإسلامي (التجربة الرستمية الأموية أنموذجاً)، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 03، العدد 01، ص 751.

² - فاطمة مطهري، المرجع السابق، ص 505.

³ - ابن الصغير، المصدر السابق، ص 32.

⁴ - فاطمة مطهري، المرجع السابق، ص 450.

⁵ - فاطمة مطهري، المرجع نفسه، ص 450.

* الاستيطان الحضري: يشمل المدينة وسكانها على مختلف انتمائهم وقصور الأثرياء منهم في

الضواحي

* الاستيطان القبلي المستقر: وتمثله القبائل التي تحيط بالمدينة، مثل: لواتة وهوارة وزواغة ومطماطة

وزناتة.

* الاستيطان القبلي المتنقل: ويشتمل على القبائل التي تزور أحواز المدينة في الربيع بحثا عن الكلاً

مثل قبيلة مزاتة وسدراتة¹

نمت تاهرت إذا وأصبحت مجالا لتنوع اجتماعي وثقافي بارز، فتوافد عليها التجار ونمت البساتين

وازدهرت الأسواق، وبلغت الحمامات اثنا عشر حماما².

لقد وثقت كتب الجغرافيا والرحلات وكتب التاريخ الثقافي النهضة العمرانية لتاهرت، ونحن نعتقد أن ذلك

كله كان مدفوعا بالمناخ العلمي والتسامح الذي ساد المجتمع التاهرتي، وعلى وجه الخصوص الحركية

التعليمية، بسبب تركيز الإباضة على اجتذاب أتباع جدد لتقوية الشوكة وتعميم الأفكار في بيئة جديدة

متخلفة تماما على المشرق وما فيه من ضغوط مجتمعية وسياسية وفكرية

خاتمة:

• تعد مدينة تاهرت نموذجا للمدينة العربية الإسلامية من حيث التنظيم والتخطيط والهندسة، تماشت

في ذلك مع كتب الفقه والعمران التي لم تهمل هذه الجزئية الهامة في حياة المجتمع.

• شكلت مدينة تاهرت مشروعا ناجحا للجماعات الإباضية بالمغرب الإسلامي، خاصة بعد حملات

القمع والاضطهاد التي تعرضت لها في المشرق.

• ركزت الدولة الرستمية وبالنظر لخصوصيتها المذهبية على التعليم لاعتبارات عقدية بهدف التمكين

لمشروعها السياسي، وتثبيت فكرها وبالتالي كسب أنصار جدد.

• اهتم الرستميون بإنشاء المؤسسات الثقافية والتعليمية، ويبرز في هذا المجال المسجد الأعظم

ومكتبة المعصومة كأحد روافد المعرفة المنتجة للنخب الإباضية العالمية.

¹ - فاطمة مطهري، المرجع نفسه، ص ص 450،451.

² - البكري، المصدر السابق، أحمد عزاوي، مختصر في تاريخ الغرب الإسلامي، ديور الجامع، الرباط، المغرب، 2008، ج01، ص122.

- لقد ساهم هذا الاهتمام بالتعليم في توسع تاهرت حضريا، ما جعل منها مجتمعا منفتحا على الآخر بعدما استقطبت جاليات متنوعة من مختلف أقطار العالم الإسلامي، خاصة في جو التسامح الديني الذي عرفت به الدولة الرستمية

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، القاهرة جمهورية مصر العربية، 2010.
- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق، بشار عواد معروف، محمود عواد معروف، الطبعة 01، دار الغرب الإسلامي تونس، 2013.
- البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، تحرير وتقديم وتعليق، حماد الله ولد السالك، دار الكتب العلمية، لبنان، 2013.
- الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، حققه، إبراهيم طلاي، الزهراء للإعلام العربي. مصر.
- الشماخي، السير، المطبعة البارونية، تونس، دت
- مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977.
- ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين تحقيق، محمد ناصر، بكير براهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، لبنان
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار المعرفة الدولية، الجزائر، 2013، ج02، ص ص، 271، 272.
- أحمد عزاوي، مختصر في تاريخ الغرب الإسلامي، ديور الجامع، الرباط، المغرب، 2008.
- بكير براهيم بحاز، الدولة الرستمية (160-296هـ/777-909م)، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، منشورات ألفا، الجزائر، 2010.
- سامية مقري، التعليم عند الإباضية في بلاد المغرب من سقوط الدولة الرستمية إلى تأسيس نظام العزابة (296-409هـ/ 909-1018م)، ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006/2005.
- سلاطينية رضا، الأحياء المتخلفة والنمو العمراني (دراسة ميدانية لحي الديار الزرقاء مدينة سوق اهراس)، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع الحضري، قسم علم الاجتماع والديمغرافيا، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، 2006/2005.
- صلاح الدين شعباني، التربية والتعليم عند الإباضية بالمغرب الإسلامي، بين القرنين الثالث والخامس الهجريين (11/09م)، ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، 2003، 2004.
- عبد الحميد حسين حمودة، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مكتبة الثقافة الإسلامية، مصر
- عبد الواحد ذنون طه، الإسلام في المغرب والأندلس كيف انتشر ولماذا؟، دار المدار الإسلامي، ط01، ليبيا، 2009.

- فاطمة بلهاري، إسهام حكام بني رستم في أسلمة وتعريب مجتمع المغرب الأوسط، مجلة عصور، العدد 22-23، مخبر البحث التاريخي مصادر وتراجم، جامعة وهران، الجزائر، 2014.
- فاطمة مطهري، المظاهر الحضارية في القيروان وتيهرت إبان القرنين الثاني والثالث الهجريين دراسة مقارنة، دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2015/2014.
- كمال بركات، خولة عمامرة، جدل التمايز المذهبي والتقارب الاجتماعي والثقافي في الغرب الإسلامي (التجربة الرستمية الأموية نموذجاً)، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 03، العدد 01.
- لقبال موسى، من قضايا التاريخ الرستمي الكبرى، مكتبة المعصومة بتاهرت، هل أحرقت؟ أو نقلت عيونها إلى سدراتة في جوار بني ورجلان؟ مجلة الأصالة، العدد 41، 1977.
- محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكر العربي، دت.
- محمد بن تاويت الطنجي، دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، إسبانيا، 1957.
- محمد معزوز، مشكلات الإسكان الحضري (المناطق الحضرية المتخلفة لمدينة سكيكدة نموذجاً)، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع الحضري، قسم علم الاجتماع والديمغرافيا، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، 2006/2005.
- مختار حساني، تاريخ الجزائر الوسيط، دار الهدى للنشر والتوزيع، الجزائر.
- معروف بلحاج، الانتاج الفكري في عهد الدولة الرستمية، مجلة الفضاء المغربي، العدد 02، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي، جامعة تلمسان، أبريل 2004.